الأندلسيون

وضع انتصار شارل مارتل سنة ٧٣٣ م/ ١١٥ هـ سدًّا أمام غزو المسلمين لأوربا، فلم يعودوا يفكرون فى دفع فتوحهم إلى الأمام، واتجهوا إلى توحيد المملكة التى افتتحوها وجمع أطرافها، وبعد أن وقعت الواقعة بجيش شارلمان، عاشوا فى بلادهم آمنين لا ينازعهم منازع مدة ثلاثمائة سنة. نعم إن أبناء القوط المنهزمين تمسكوا باستقلالهم فى المقاطعات الجبلية الشمالية، وأخذوا من آن لآن يستردون أجزاءً من مملكتهم القديمة، ولكن هذه الغارات، وإن ضاقت بها صدور العرب، لم تكن إلى الآن خطرًا عليهم، لأنهم كانوا يقطنون القسم الأعظم من إسبانيا فى رخاء وبلهنية، ولم يتحقق خطر المقاطعات إلا فى القرن الحادى عشر.

وقبل الفاتحون أول الأمر الاعتراف باستقلال هذه المقاطعات، وعدوا ذلك شرًّا لا بد منه، لأن انتزاعها من أيدى الإسبان كان يكلفهم دماء أغلى مما تستحق؛ فتركوا للمسيحيين جليقيَّة (غاليسية)، وليون، وقشتالة، ومقاطعات غسقونية، وقنعوا بأحسن قسم فى إسبانيا، وأرغموا المسيحيين على التمتع بمفاوز الشمال الموحشة الباردة، وصخوره القاسية الجافية، على ألا يطمحوا أو يمدوا أعينهم إلى ما ينعم به العرب، من الولايات الجنوبية والشرقية الدفيئة الخصيبة.

ومنـذ نهاية القرن الثامن - حينمـا وقفت حدود مملكة العرب عند غاية، إلى أن زحف المسـيحيون على ممالك الإسـلام فى القرن الحادى عشـر - كان الحد بين المسلمين والمسيحيين على التقريب، عند امتداد شارات وادى الرمل[1] التى تمتد فى اتجاه شمالى شرقى من قُلمرية فى البرتغال إلى سرقسطة، ويمكن أن يعد نهر إبره حدًّا تقريبيًّا. فكان المسـلمون ينعمون بالسهول الخصيبة لأنهار تاجة، ووادى يانـة، والوادى الكبير، وهو الاسـم الـذى سمى به العرب هذا النهر لعظمه، وكانوا يملكون إلى جانب مدن الأندلس الشهيرة مزايا الثروة، ورواج التجارة، واعتدال الجو إلى غير ذلك مما اشتهر به هذا القسـم من عهود الرومان. وهذا التقسـيم طبيعى، فقد تميز القسـمان تميزًا جغرافيًّا منذ القدم لاختلاف أجوائهما، فالشـمال موحـش معرض للريـاح الهوج والأمطار الهاطلة والبرد الشـديد، وهـو على جودة بعض المروج والمراعى به لا يصلح كثير من أراضيه للزراعة، أما الجنوب وإن كان مهددًا بالرياح الحارة التى تهب من إفريقية، فمزدهر كثير المياه صالح للزراعة. وبين القسمين مساحة واسعة، كان المسلمون ينتفعون بها على الرغم من أن ملكيتها كانت موضع شـك وجدال، وأبغض العرب وهم عشاق الشمس المتألقة هذه المساحة الباردة، فتركوها لقبائل البربر أصحاب طارق، وكان هؤلاء دائمًا موضع زراية العرب الخلص الذين جنوا ثمرات الفتوح.

(١) الشارات: الجبال.

ملك المسلمون ثلثى شبه الجزيرة وسموها بالأندلس، وأنشأوا بها مملكة قرطبة العظيمة التى كانت أعجوبة العصور الوسطى، والتى حملت وحدها فى الغرب شعلة الثقافة والمدنية مؤتلقة وهاجة وقت أن كانت أوربا غارقة فى الجهالة البربرية، فريسة للشقاق والحروب.

ويجب ألا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا فى البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم، فإن الأندلس لم تحكم فى عهد من عهودها بسماحة، وعدل، وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين.

وقد يسأل المرء نفسه دهشًا: من أين جاء لهؤلاء العرب كل هذه المواهب السامية فى الإدارة والحكم؟ فقد جاءوا مباشرة من صحرائهم العربية ولم تترك لهم فتوحهم المتوالية من الزمن إلا قليلا، لدراسة فنون سياسة الأمم المغلوبة. نعم، إن بعض رجال دولتهم كانوا من اليونان والإسبان، ولكن هذا لا يبطل العجب، لأن هؤلاء لو تركوا وحدهم أو عملوا فى ميدان آخر بعيد عن العرب لعجزوا عن أن يكون لهم أمثال هذه النتائج الباهرة، وكل ما هيئ للعقول الإسبانية من القدرة الإدارية لم يكفِ لجعل الحياة أيام دولة القوط محتملة هنيئة، ولكن الأمة الإسبانية على النقيض من ذلك كانت فى ظلال حكم العرب راضية هانئة كما يمكن أن يرضى ويهنأ شعب مغلوب يحكمه غاصب، بل إنها كانت أسعد حالا وأرخى

بـــالا، مما كانت عليه حين كان حكامها القوط يدينون بدينها الذى تراءوا باسمـــه دون حقيقته فإن اختلاف الديـــن كان فى الحق أقل المصاعـــب التى لاقاها العرب فـــى أول حكمهم، وإن أصبح بعد ذلك مثار عنت واضطراب؛ لأن ميول الإسبانيين للمسيحية كانت لا تقل عن ميولهم للوثنية، فقد فرض عليهم قســطنطين المسيحية فرضًا، فبقى الناس متشـــبثين برومانيتهم، ولم يترك الدين فى نفوســـهم إلا أثرًا ضئيلا، وهم فى الواقع لم يكونوا فى حاجة إلى دين جديد، بل كانوا فى أشد الحاجة إلى القدرة على أن يعيشوا حياتهم فى أمن ورغد، وقد منحهم ساداتهم المسلمون هذين.

وفـــى بداءة الفتح، مر بالأندلس وقت قصير مضطرب، شـــوهته حـــوادث الإحراق والقتل والمصادرة، غير أن حكام العرب أســـرعوا إلى وقف كل ذلك، ورأت الرعية بعد أن استقرت الأمور فى نصابها أن حياتهـــا على كل حال لم تكن أســـوأ مما كانت عليه من قبل، ثم أخذ الناس بعد قليل يشـــعرون بأنهم أفـــادوا من تغير الحكم، فقد كان للإســـبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم، وعين لهم حكام من أنفســـهم يديرون المقاطعات ويجمعـــون الضرائب ويفصلون فيما شـــجر بينهم من خلاف، وأصبح ســـكان المدن لا يكلفون إلا الجزية والخراج - إن كانت لهم أرض تزرع - بعد أن كانوا فى عهد القوط يحملـــون وحدهم عبء الضرائب والأمـــوال التى تنفق على الدولة، وكانـــت الجزية متدرجة على حســـب منزلة المطالبين بها، فكانت

تبتدئ من اثنى عشر درهمًا إلى ثمانية وأربعين فى العام، أو من نحو ثلاثة جنيهات إلى اثنى عشر، وقد قسمت اثنى عشر قسطًا، يجنى قسط فى كل شهر للتخفيف عن الرعية، وقصرت الجزية على المخالفين فى الدين من النصارى واليهود، أما ضريبة الأراضى التى كانت تتفاوت على حسب قدرة إنتاج الأرض، فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعًا، ولم تمتد يد المسلمين فى الغالب إلى أملاك المدن والأهلين التى كانت لهم قبل الفتح، نعم، إن أملاك الكنائس صودرت، وكذلك الأملاك التى فر أصحابها إلى جبال الشمال، ولكن العرب تركوا عبيد هذه الأراضى يعملون بها على أن يؤدوا إلى ساداتهم المسلمين نسبة من الحاصل تتفاوت بين الثلث وأربعة الأخماس، وعومل بعض المدن كماردة وأريولة معاملة خاصة، وفازت من الفاتحين بخير الشروط، فاحتفظ السكان فيها ببضائعهم وأراضيهم على أن تؤدى إلى الحاكم إتاوة فى كل عام، ولم يكن المسيحيون على أسوأ الفروض ملزمين دفع ضرائب أكثر مما كان يدفع جيرانهم المسلمون، على أنهم قد ظفروا بحق لم يكن لهم أيام ملوك القوط، فأصبحوا فى عهد الإسلام قادرين على نقل ملكية أراضيهم لغيرهم. أما التسامح الدينى فلم يدع للإسبانيين سببًا للشكوى، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود، وكانت الجزية كبيرة الفائدة لخزانة الدولة، حتى

إن بعض أمراء قرطبة كانوا يميلون لتثبيط عزائم المتحمسين من المسلمين الذين أخذوا يدعون إلى الإسلام، لأن هذه الدعوة كانت تحرم الدول منبعًا غزيرًا من موارد جبايتها.

وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح، أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد، واعترفوا فى صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الإفرنج أو القوط، حتى إن القساوسة أنفسهم لم يكونوا شديدى التألم لحكم العرب كما يدل على ذلك التاريخ المنسوب إلى «إيزيدور» الباجى[1] الذى كتب بقرطبة سنة ٧٥٤ م / ١٣٧ هـ فإن هذا الراهب الصالح لم يتحرج من تدوين تلك الصلة غير الجائزة من زواج أرملة لذريق بابن موسى بن نصير[2]. وأسطع الأدلة على رضا المسيحيين عن حكامهم الجدد، أن ثورة دينية واحدة لم تحدث فى خلال القرن الثامن.

أما فرح العبيد بما طرأ على نظام الحكم من التغير فقد كان عظيمًا حقًا بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط

---

(١) يقال: إنه من قرطبة، ذكره دوزى فقال: إنه كان قسيسًا، ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد؛ فهو يروى مثلا: أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبد العزيز بن موسى بن نصير، ولا يجد فى ذلك إثمًا كما كان يفعل غيره من القسيسين، ثم قال دوزى: إن كراهية إيزيدور للعرب إنما كانت لأنهم شعب غريب لا من أجل أعمالهم.

(٢) أغرته زوجه أن يلبس تاجًا فثار عليه العرب وقالوا إنه تنصر فقتلوه سنة ٩٨ هـ.

والرومان ما تقشعر له الأبدان، فإن الرق فى رأى المسلمين الأخيار نظام إنسانى رفيق، حتى إن النبى ﷺ حينما لم يجد بدًّا من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذى يعارض مبادئ الإسلام، بذل كل جهد فى تخفيف ويلاته فى كثير من الوصايا والأحاديث، فهو يقول فى الأرقاء: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإذا كلفتوهم فأعينوهم» وعن أبى مسعود الأنصارى قال: «كنت أضرب غلامًا لى فسمعت من خلفى صوتًا يقول: اعلم أبا مسعود: الله أقدر عليك منك عليه. فالتفت، فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله. فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار».

ولم يكن بين القرب التى يتقرب بها المسلمون إلى الله أجل من إعتاق العبيد، وكثيرًا ما حض النبى على تحريرهم، وقد جعل الإسلام إعتاقهم كفارة لبعض ما يجترح من الذنوب.

سعد العبيد بدخول العرب، وأصبحوا فى رق المسلمين بمنزلة صغار الزراع، فتركهم سادتهم أحرارًا يزرعون الأرض كما يشاءون على أن يؤدوا إليهم نصيبًا من الغلة، لأنهم كانوا مشتغلين بالحروب، ولأنهم كانوا بطبيعتهم يأنفون من أعمال الفلاحة، أما عبيد المسيحيين الذين ظلوا يائسين من التخلص من الرق طول حياتهم: فقد مهد أمامهم اليوم طريق إلى الحرية من أسهل الطرق

وأهونهـا، فليس عليهم إلا أن يذهبوا إلى أقرب محتسـب أو قاض، وينطقوا أمامه بالشهادتين، فيصبحوا فى التو أحرارًا، فإن الحرية تتبع الإسـلام، فليس عجيبًا إذًا أن نجد العبيد الإسبانيين مسرعين إلى إعـلان دينهـم الجديد ليتخلصوا من ربقـة العبودية. ولم يبذل القساوسـة فى الماضـى إلا جهدًا ضئيلا لغرس المسـيحية فى قلوب هؤلاء الأرقاء، فقد كان لديهم من العمل والإشراف على ضيعاتهم ثم من العناية الدينية بالنبلاء ما صرفهم عن الاهتمام بهؤلاء الجهلاء، ثم إن الانتقال من مزيج الوثنية والمسيحية إلى إدراك ضعيف للإسلام لم يكن صدمة شـديدة للعقل المقلد. ولم يكن العبيد وحدهم هم الذين تسـابقوا إلى الدين الجديد، فقد أسلم كثير من كبار الملاك والسراة، إمـا للفرار مـن الجزية، وإمـا للمحافظة على ضياعهـم، وإما لأن نفوسـهم مالت مخلصة إلى الإسلام وأحبت ما فى التوحيد من جلال ويسـر، وكان هؤلاء الداخلون فى الإسـلام أو المتسـلمون[1]، سببًا لإثارة القلاقل فى الدولة كما سـيتلى عليك بعد، فإن إسـلامهم وإن تضمن مساواتهم بالمسـلمين لم يصل بهم إلى التمتع بحقوق المسلمين وميزاتهم كاملة، فقد حيل بينهم وبين مناصب الدولة، ونظر إليهم نظرة اشتباه وحذر كما ينظر إلى من يبيع نفسه رخيصة يريد عرض

(١) تسـلم: دخل فى الإسلام. ويقال كان كافرًا فتسـلم، ومؤلفو تاريخ الأندلس يسمون من دخل فى الإسلام إسلاميًا.

الحيـاة الدنيا. وقد زالت هـذه الفروق فى النهايـة، ولكن بعد أن أحدثت نزاعًا خطيرًا، وثورات متعاقبة.

كان فتح العرب للأندلس فى جملته نعمة ورخاء على الأندلسيين المحكومين، لأنه أبطل ما كان يملكه كبار النبلاء ورجال الكنيسة مـن الضيـاع الواسـعة، وحولها ملكيـات صغيرة، ثـم رفع عبء الضرائب عن الطبقة الوسـطى، واقتصر منها على الجزية على غير المسـلمين، والخراج على المسـلمين وسـواهم، ثم حث على تحرير العبيد والرفق بهم، وإصلاح أحوالهم فأصبحوا زراعًا مسـتقلين فى خدمة ساداتهم المسلمين.

وكان الفتح على النقيض من ذلك شرًّا وبلاء على الحاكمين، فليس هناك أبعد شططًا من أن تتخيل أن العرب الذين انتشروا بهذه السرعة فـوق نصف العـالم المتمدين كانوا متحدين علـى أى معنى مقبول من معانـى الاتحاد. فإن ذلك لم يكن صحيحًـا، وقد بذل محمد جهده، وكـدّ بكل ما أوتى من حكمة وحزم وشـخصية مهيبة عجيبة ليحافظ جهد المسـتطيع على صورة للوحدة العربية. لأن العرب كانوا شعوبًا وقبائل، وكان بين هذه القبائل حروب وترات دامية استمرت طويلا، وكان للنعرة القبلية التى لم تنطفئ شعلتها بعد الإسلام، أكبر سلطان على نفوسـهم، ولو بقيت دولة الإسـلام فى حدود بـلاد العرب ولم تتجاوزها، ما بقى شـك فى سـرعة انتقاضها وزوالها، لكثرة ما كان يقع بين القبائل من التنافس والتحاسد، وقد تبع وفاة النبى ﷺ خروج

عـام من القبائل. والحق أن الإسـلام لم تثبـت أركانه ولم يصبح دين الدنيا إلا حينما سـلح نفسه وأصبح دينًا محـاربًا، فنجا من الانتكاس بتـوالى انتصاراته لأن العرب إذ ذاك ألقوا إلى حين تحاسَدهم المدمر القاتـل جانبًا ليتعاونوا فى اقتنـاص الغنائم، على أنه من المحقق أن تحمسـهم للفتوح كان يؤججه عنصر قوى من التعصب للدين والرغبة فى نشره. فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله، وحاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السـعادة والنعيم كانت تنتظر من يقتلون فى سبيل الله، غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة القياصرة والأكاسرة، والأراضى الخصبة، والمدن العامرة فى الممالك المجاورة - كانت عاملا كبيرًا فى تحمس المسلمين لنشر الإسلام.

وحينما اسـتقر لهـم الملك وهدأت موجة الفتـوح، عادت إليهم الشـحناء، وتحركت فيهم عقارب الحسـد والغيرة والتفريق التى كانت اسـتلتها جلبة الحـروب وغنائم الفاتحـين، فانطلقت بعد احتباسـها منذرة بالشـر والدمار، فـإن روح العنصريـة القبلية انتشـر فى كل جزء مـن أجزاء المملكة التـى أخضعوها، وتأثر به الخلفاء بدمشق، فكان تعيين الأمراء فى الولايات يتبع هذه النزعة القبلية، وكان اختلاف القبائل وتعصبها بالأندلس داعية لكثير من الفوضى واضطراب الأمن والنظام فى أثناء الخمسـين سنة الأولى من حكم العرب حينما كان حاكم إفريقية أو الخليفة نفسـه يعين أمير الأندلـس، فكان هؤلاء الأمراء يبقون فى مناصبهم، أو يعزلون، أو

يقتلـون تبعًا لميول بعض العشـائر والقبائل الذيـن كانوا يعارضون مرة أن يكون الأمير مدنيًا، ومرة فى أن يكون قيسيًا، وثالثة فى أن يكون يمنيًا، واسـتمرت هذه النعرة تقذف سمومها طول مدة حكم العرب بالأندلس.

يضاف إلى ذلك، أن الأندلس كان بها إلى جانب العشائر العربية المختلفة حزب آخر عظيم الخطر يجب أن يحسـب له حساب، فإن طارقًـا لم يتم له فتح الجزيرة إلا بجيش جمهرته من البربر، لذلك أصبح هؤلاء عنصرًا عظيم الشـأن فـى الحياة الجديدة، ولم تكن أمة البربـر ضعيفة خائرة كالإسـبان الذين اصطبغـوا بصبغة الرومان، ولكنهـم كانوا ممتلئين حيـاة وعزمًا وإقدامًـا، وحينما غزا العرب بلادهم، قاومهم عديد من قبائلهم الباسلة فى معاقلهم الجبلية وفى السـهول الممتدة من مصر إلى المحيـط الأطلنطى مقاومة عنيدة كانت أشد عنفًا من مقاومة الفرس وجنود رومة المدربين، وكانوا يشبهون العرب فى كثير من الوجوه، فكان لهم قبائل كما كان لهؤلاء، وكانت ميولهم السياسية ديمقراطية كالعرب، غير أنهم كانوا يجلون الأسر الشـريفة إجلالا ذهب بخطر الديمقراطية بين قوم جاهلين، وكانت صفاتهـم الحربية عربية فـى أكثر مظاهرها، واسـتمر القتال بين هذين الفريقين من الرعاة المنتجعين سـبعين سـنة، حتى إذا تغلب عليهم العـرب فى النهاية كان هذا الفوز عـن رضا من البربر أكثر من أن يكون هزيمة محققة. فسـمح البربر للأمير العربى أن يجعل

دار حكمه قريبة من الساحل، ولكنهم حتموا إبقاء حكومتهم القبلية للفصل فى شئونهم كما كانت، وطلبوا أن يكونوا إخوانًا لا خولا ولا عبيدًا للفاتحين. واستمر هذا النظام الأجوف قائمًا مدة من الزمن، وتسابق البربر إلى الإسلام، وتحمسوا له حماسة تفوق تحمس العرب أنفسهم، وبعد قليل أصبحت بلادهم عشًّا للمذاهب الدينية المبتدعة التى بدلت بالأصول الإسلامية الفطرية عناصر وهمية مثيرة للعواطف، يدسها أصحاب العقول البعيدة الخيال فى كل دين، ووجد المبتدِعون بعد أن طردوا من حظيرة الدين الحق فى عقول السذج من البربر أرضا خصبة لإنماء مذاهبهم. وقديمًا عرف البربر بسرعة قبولهم لما يلقى عليهم من المذاهب الدينية، وبشدة تأثرهم بها وتحمسهم لها، ذلك التأثر الذى ذهب بهم أفواجًا إلى اعتناق الإسلام، والذى مكن طارقًا واثنى عشر ألفًا منهم من فتح الأندلس. وقد استغل هذه السذاجة فى حركته السياسية الدينية زعيم المرابطين الذى قدم إلى المغرب ليبث فى نفوس القوم نفوذًا أقوى من نفوذ رؤساء قبائلهم، ويخضعهم بسطوة فوق سطوة حاكمهم، ولم يكن يحتاج هذا الزعيم إلى أكثر من كرامات زائفة ليسوق قطيعًا من المصدقين الدهشين إلى حظيرته.

وتحقق أحد حكام العرب من رواج هذا الدجل بين قبائل البربر حين رآهم يخضعون لامرأة تدعى الولاية وتؤيد دعواها بألاعيب من الشعوذة، فأخذ يدرب نفسه على مثل هذه الألاعيب حتى

برع فى أساليب الحواة، فنال من طاعة القوم واستسلامهم فوق ما كان يبتغى، ومثل هؤلاء يتبعون كل صائح، ويستمعون لكل داع، ويسرعون خفافًا إلى الثورات العنيفة التى يشعلها زعيمهم بكلمة واحدة. وكان البربر سببًا لكل التطورات التى حدثت فى شمال إفريقية، فإنهم أقاموا دولة الفاطميين، ثم لحقوا بجيوش المرابطين فسارت منتصرة الأعلام حتى ملكت بلاد البربر وإسبانيا، ثم أسقطوا المرابطين وأحلوا محلهم الموحدين.

وشرع البربر فى الأندلس منذ حكم العرب يناصبون الحكام العداء، وحدث أن أحد هؤلاء بالغ فى إرضاء ميوله بالتمتع والإغراق فى النعيم، مرهقًا فى سبيل ذلك رعيته، فأغضب ذلك العلماء والفقهاء فأثاروا البربر عليه، فما كانت إلا لحظة حتى هب للسلاح جميع سكان نصف الساحل الغربى لبحر الروم، وحتى دهى العرب بالأندلس بهزيمة نكراء، وأقبل من الشام ثلاثون ألفًا من الجنود لاستعادة الولايات التى احتلها البربر، فحيل بين معظم هؤلاء ومن انضم إليهم من العرب بإفريقية والذهاب إلى الأندلس، وأعمل فيهم البربر السيف ذبحًا وتقتيلا، وفرت فلولهم إلى سبتة بأرواحهم، فكان يهددهم فى كل لحظة عدوان من الجوع والقتل.

وتأثر بربر الأندلس بوثيق اتصالهم بإخوانهم فى الساحل الإفريقى بهذه الثورة التى قامت بإفريقية سنة ٧٤١ م / ١٢٤ هـ وكان يتغلغل فى نفوسهم حسد قديم للعرب، لأنهم نالوا نصيب الأسد

من غنائم إسبانيا التى لم تدن قطوفها إلا بقسى البربر ورماحهم، ورأوا أن العرب الذين لم يدخلوا البلاد إلا وقت اجتناء ثمرات الفتح اختصوا أنفسهم بكل الولايات الخصبة الباسمة من شبه الجزيرة، وتركوا لهم أبغض الأجزاء إلى النفس من سهول إسترامادور العفر، وجبال ليون الثلجية، فأقاموا بها مرغمين فى جو قارس لا يحتمله من عاش فى حر إفريقية، ثم إنهم رأوا أنفسهم فى وضع يجعلهم دائمًا حامية دفاع بين حلفائهم العرب ونصارى الشمال.

تأثر البربر بكل هذا، وقام «مونوسا» البربرى - أحد قواد طارق الذى تزوج بنت يوديس دوق أقيتانية - فأشعل نار الثورة لما أصاب إخوانه بإفريقية من الظلم، وبعد أن فاز بربر إفريقية بمطالبهم، هبت ثورة عامة فى الولايات الشمالية بإسبانيا، وحمل السلاح بربر غاليسية، وماردة، وقورية، وتقدموا للهجوم على طليطلة، وقرطبة، والجزيرة الخضراء، وصمموا على أن يبحروا منها إلى إفريقية للاتصال بأبناء وطنهم.

وكان الموقف شديد الخطر عصيبًا، وجد فيه عبد الملك بن قطن الفهرى[1] أمير الأندلس نفسه أمام مشكلة تكاد تستعصى على الحل، لأنه كان قد أبى أن يمد يد المساعدة لجنود الشام بسبتة، فأصبح الآن أمام أمرين أحلاهما مر وخيرهما شر: إما أن يخضع

(١) ولى الأندلس سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م، ثم عزل عنها ذميما وقتل وصلب سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م.

للبربر العصاة، وإما أن يستجدى معونة جنود الشام الذين رفض معاونتهم، والذين قد يكونون إذا أذن لهم بنزول الأندلس أشد بلاء وشرًّا من هؤلاء الذين جاءوا لطردهم. ولكنه صمم آخر الأمر على إرسال سفن لنقل جنود الشام بعد أن أخذ عليهم عهدًا أن يعودوا من حيث أتوا بعد التغلب على البربر، وبعد أن قوى جيش العرب بهذا المدد، كر على البربر فاستأصل شأفتهم، ثم تعقبهم فى كل مكان وبين معاقلهم الجبلية، كما يتعقب الصائد الوحوش الضارية، حتى شفى نفسه بنيل الثأر منهم.

غير أن الخطر الذى أراد عبد الملك أن يتوقاه ظهر وأبدى ناجذيه، فقد أبى جنود الشام أن يستبدلوا بالمروج الخضروالحدائق الفيح بالأندلس، صحراء إفريقية القاحلة، حيث تنوشهم رماح البربر المتغلبين، فتحدوا عبد الملك وقتلوه، واختاروا للأندلس أميرًا منهم[1]، وكان من نتائج ذلك أن شب بين العرب القدماء والجنود الداخلين صراع عنيف طويل المدى، كثرت فيه المذابح، وعم الدمار، ولم ينتهِ هذا الصراع إلا بعد أن أرسل الخليفة بدمشق أميرًا[2] قديرًا فرَّق بين القبائل المتطاحنة بإعطاء كل من الفريقين

---

(١) هو بلج بن بشر الذى قتله عبد الرحمن بن علقمة سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م بعد أن حكم أحد عشر شهرًا.

(٢) هو أبو الخطار حسام، قدم الأندلس سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م من قبل حنظلة ابن صفوان عامل إفريقية.

مدنًـا تبعد عن مدن الآخـر، ثم بنفى أكثر زعمـاء الفريقين عنادًا وشـغبًا: فنزل المصريون الذين كانوا بجند الشـام مرسية وسموها مصر، ونزل الفلسـطينيون شذونة، وحل أهل الأردن بمالقة، وأقام الدمشـقيون بغرناطة، واستقر أهل قنسـرين بجيان. وبهذا الوضع زال سبب من أسباب النزاع الحزبى بالأندلس، ولكن الروح القبلية لم تضعف سيطرتها بعد، وبقيت الثورات تتغلب على الحكومات، وتستبد بها، واستمرت الحال على هذا، حتى نزل الأندلس حاكم من طابع جديد، سـلاحه الجلال والمهابة، يحمل بين جنبيه عزة الخلفـاء الأمويين، وتجـرى فى عروقه دماؤهم. قـدم إلى الأندلس ليحمـل صولجـان الحكم فى مملكـة مضطربة، منحلـة الأواصر، وليجمـع فى حقبة من الزمن كل القبائل والعشـائر تحت لواء أمير قرطبة ... هذا الشـاب: هو الأمير الجديد الذى جاء شارلمان لقتاله فآب بالخيبة ... هذا الشاب: هو عبد الرحمن الأموى!!